الكتابة النسويّة

بين التّوقيع الجنسيّ والبحث عن هويّة جنوسيّة

أ.علي دغمان

مفتتح:

الكتابة حفريّة الذات، توقيع الهويّة عبر استحضارها وتغييبها في الوقت نفسه؛ إذ يتمّ استحضارها عبر منحها الفرادة والتميّز، ويتمّ تغييبها بأنْ تمنح نفسها إمكانيّة الانفتاح على نفسها، أي انطلاقًا من درجة الانتشار التي تُوفّرُها ديناميّة التكرار في زمن الكتابة اللاحق. وعليه يُمكِن القول: إنّ الكتابة حضور بالقوّة؛ كونها فعاليّة **اخــ(ت)ــلافيّة**، وهي حضور بالفعل كونها فعاليّة أدبيّة. وبما أنّ الأدبيّة تجربة تبحث عن ذاتها في ذاتها، بهدف تكملة ذاتها، وأنّ هذه الذات تَحتَكم إلى مُحدِّدات جنسيّة، بمعنى التمايز الفيزيولوجيّ بين كينونتين أصليّتين، هما: الرجل والمرأة؛ فكينونة الرجل تعتمد على شرط وجود المرأة في زمنٍ لاحقٍ، وكينونة المرأة تعتمد على شرط وجود الرجل في زمن سابق، فتلازميّة النُّشوء يتولّد عنها تلازميّة أخرى هي: حضور أو غياب كليهما معًا؛ فإمكانيّة حضور **الــ(أنا)** تعتمد على حتميّة حضور **الآ(خ)ــر**، وغياب **الآ(خ)ــر** ينفي إمكانيّة حضور **الــ(أنا)**، فكلاهما، إذًا، تكملة **للآ(خ)ــر**، عبر **اخــ(ت)ــلافهما** معًا؛ فالعمل على توسيع الفارق بين الجنسين يُؤدّي إلى تحديد الماهيّة الجنسيّة لكليهما، أي توقيع هويّة أحدهما انطلاقًا من الآخر.

وعليه، هل يمكن للكتابة النسويّة أنّ تهدم هذه التلازميّة، وتُحقّق لنفسها، بالتالي، حضورها، وتميُّزها، بأنْ تُوَقّع هويّة أدبيّتها بنفسها، أي بكينونة الذات المُبدِعة، وليس بجنسيّتها التي تَتَحدَّد بانتمائيّتها الفيزيولوجيّة ؟

1 ــ الما ــ قبل: قراءة الهامش

تنفتح حركة انتشار المصطلح، على ثلاثة مفاهيم، قد يُوحي المُشترك الوصفيّ ــ الجنسيّ بينها إلى التقارب، أو الذوبان، بمعنى التلبُّس الدلاليّ، إلى درجة انمحاء الفوارق بينها؛ بحيث يُصبح الواحد بَدَلَ الكلّ، رغم أنّ هذا التّنوُّع يُوحي، كذلك، بالتباين الإبيستيمولوجيّ والأنطولوجيّ، لكلّ مصطلحٍ، الذي يُحيل، بدوره، على الاختلاف بوصفه كينونة ترفض التمركز في أيّ شكلٍ من أشكال الحضور الممكن، وهو ما دفع بحركة المصطلح إلى الانتشار، التشتُّت، والبعثرة.

تُكتَبُ هذه المُصطلحات الثلاث، تماشيًّا مع الإسقاطات التاريخيّة التي عرفتها الأدبيّة النسويّة، ونتجت عنها الصيغ الآتية:

أ ــ كتابة المُؤنَّث:

وهي "**مرحلة المحاكاة للأشكال الأدبيّة السائدة وتقاليدها المهيمنة**"[1]؛ إذ يُحِيل، هذا النمط من الكتابة، على الظلال التي يُنتِجُها، أو يُخلّفُها أثر الكِتَبَةِ في النصّ؛ بحيث يُستدلُّ عن هوية النصّ من جنسيّته؛ ضمير المؤنث المتنامي، بالموازاة، مع حركة تنامي الخطّ الشعريّ ــ السرديّ، في نسيج النصّ، وليس جنوسيّته؛ لأنّ النص لم يسعَ لامتلاك أدواته التجريبيّة بحيث يصنع لنفسه أعرافًا أدبيّة تُحَدِّدُه ويَتَحَدَّدُ بها، أي يُوَقّع لنفسه حضورًا أدبيًّا، يَلِجُ عبره إلى نظريّة الأدب، والنقد، كونه هويّة أدبيّة جديدة، تريد إلى إحداث مراوحة موقعيّة جديدة، على مستوى النظريّة الجنوسيّة، تُثبت أوليّته عندها، وتستقطب اهتمامها بالبحث في فضاءات نصيّتها، عن بوادر نظريّة تُحَقّق وجوده الفعليّ، بَدَلَ وجوده بالقوّة.

ب ــ الكتابة النسويّة:

وهي: "**مرحلة الاعتراض والاحتجاج على هذه التقاليد والقيم.**"[2]

تأتي، هذه النوعيّة من الكتابة؛ المصطلح، بمعنى الإحالة على الآخر بوصفه ذاتًا خلاّقة، تَتَحَدَّدُ هويّتها الأدبيّة بتوقيع هويّتها الجنسيّة، وليس هويّتها الجنوسيّة؛ لأنّ هذا المصطلح "**يُقدِّم المرأة والإطار ــ المحيط بها ــ الماديّ والبشريّ والعرفيّ والاعتباريّ... الخ ــ في حالة حركة وجَدَل.**"[3]

جـــ ــ الأنثويّ/ النسائيّ:

وهي: "**مرحلة اكتشاف الذات**"[4]

يُحيل على علائق المُتَخَيَّل الأيروسيّ، أو أثر سلطة اللذة في القاريء؛ يَنتُجُ إثر تفاعله مع جسد/ لغة النصّ، المُتَحَدَّد بكينونته الأدبيّة الأنثويّة الإغرائيّة. وتُعدُّ، هذه السلطة، تمهيدًا لمرحلة انفلات الذات المُبدِعة؛ بوصفها الكتابة النسائيّة، غير أنّ هذه المرحلة لا تزال في طور النشوء والتشكُّل، وهو سبب إلصاق المرحلتين معًا.

2 ــ الما ــ بعد: هامش القراءة

اتَّجهت مقاومة الوسط الثقافيّ العربيّ، لمصطلح الكتابة النسويّة، إلى تَشَتُّت المصطلح وبعثرته، نتيجة **الـــ(لا)تحديد** المنهجيّ، أو القصور في الوعي المفهوميّ والمعرفيّ للمصطلح، في حَدِّ ذاته، في مقابل، مقاومة المرأة/ الكاتبة للمصطلح "**وللنوع والتسمية والوصف: »النسويّ«، لأنّها ببساطة تريد أنْ تخرج من حصار »الفئة« الموصوفة بجنسها إلى فضاء »النصف المشارك« المُجرد من جنسه، إلاّ أنّها، في الوقت نفسه، تُدرك في قرارة وعيها أنّ ذلك لن يتحقّق إلا لفظيًّا، وأنّها**

محكومةً بحتميّةِ شرطِ جنسها، وتزداد مقاومةً لتصنيف نتاجها الأدبيّ والذهنيّ بأنّه »نسويّ«"[5]

وعليه سوف نحاول تتبع حركة انتشار المصطلح وفق الآتي:

أ ــ الكتابة ضمن الأعراف:

إنّ مصطلح **(الكتابة الأنثوية)**، كمفهوم ابتدائيّ عامٍ، يُحيل على "**ما تقوم به الأنثى، وما تتَّصف به، وتنضبط إليه**"[6]، الأمر الذي يستدعي، إلى الذاكرة؛ ذاكرة القاريء، وبطريقة لاإراديّة، "**وظيفتها الجنسيّة، وذلك لفرط ما استُخْدِم اللفظ لوصف الضعف والرقة والاستسلام والسلبيّة.**"[7]

وعليه فإنّ الحاجة إلى إيجاد مصطلح بديل، يُفرغ مفهوم الكتابة النسويّة من إحالاتها الجنسيّة، المخبّأة في الذاكرة الشعبيّة والثقافيّة، على مستوى المجتمع العربيّ، اتّجهت إلى مصطلح آخر، هو: **(الكتابة النسويّة)**، بوصفه توقيعًا نسويًّا؛ لأنّ كلّ ما تكتبه المرأة "**لا يمكنه إلاّ أنْ يكون نسويًّا، وفي أحسن حالاته يكون نسويًّا على أكمل وجه، لكنّ الصعوبة الوحيدة تَكمُن في تعريف ما نعنيه بكلمة نسويّ.**"[8]

لا شك أنّ في محاولة البحث عن صياغةٍ بديلةٍ، سوف تُحرِّر المصطلح من حمولته الدلاليّة، في مجال تداوله العام، في الحياة الاجتماعيّة والثقافيّة، لكنّها، في المقابل، سوف تنفي عنه حضوره المفهوميّ؛ كونه مصطلحًا يُحَدِّدُ هويَّة إطاره الأدبيّ ويَتَحَدَّد به، بدوره، والسبب؛ أنّ حضوره نتيجة حساسيّة الكتابة النسويّة اتّجاه توظيفات واستخدامات المُصطلح، في حَدِّ ذاته، وليس انطلاقاً من مفهومٍ لغويٍّ/ معرفيٍّ.

ب ــ الكتابة رفض للأعراف:

إنّ التعارض القائم بين المفردتين: **(أنثويّ/ نسويّ)**، من حيث الدلالة والمعنى، يُؤكّد على حتميّة إحلال مُصطلح **(النصّ الأنثويّ)**، مَحَلَّ مصطلح **(النص النسويّ)**، أو **(الكتابة النسويّة)**؛ فمصطلح النص الأنثويّ: "**يُعَرِّف نفسه استناداً إلى آليات الاختلاف، لا الميز**"[9]؛ بمعنى أنّه يتعالى عن المقابلة التقليديّة: **[(مؤنث)/ (مذكر)]**، بكلِّ دلالاتها الأيديولوجيّة الصداميّة.

(النصّ المُؤَنّث) ليس **(النصّ النسائيّ)**؛ فمصطلح نسائيّ يُحيل على معنى التخصيص، الذي يُوحي، بدوره، على الحصر والانغلاق في دائرة جنس النساء، و**(النصّ المُؤَنّث)** ينزع "**إلى الاشتغال في مجالٍ أرحبٍ ممّا يُخَوِّل تجاوز عقبة الفعل الاعتباطيّ في تصنيف الإبداع احتكامًا لعوامل خارجيّة على غرار جنس المبدع.**"[10]

إذًا، فـ**(النصّ الأنثويّ)** يتميّز بالرفض للانطلاق من أيّ تصنيف مُسبَقٍ، كما يتميّز بوجود علامات **الـ(مونث)** في تشكيل تعبيراته، إضافة إلى تَعَرُّفِه على نفسه: "**من خلال حركة، ممارسة فعل الكتابة، ويمكن مقاربته اعتماداً على قانونٍ افتراضيٍّ مؤقَّتٍ، وقصد رصد المُختَلف فيه.**"[11]

تبقى هذه المحاولة ناقصة، على جرأتها؛ إذ تفتقر إلى تحديد المفاهيم الايجابية الممكنة لمصطلح **(أنثويّ)**، رغم محاولة ردّ الاعتبار إلى المصطلح، وتخليصه من التأويلات الخاطئة، التي أفضت بها إلى تخطّي المظهر الخارجي، للفعاليّة الاصطلاحيّة، إلى حدّ توجيه التحليل نَحْوَ مقاربة النصّ الذي تكتبه المرأة من الداخل، إلى غاية تحديد صفات فعل الكتابة عند النساء، الذي اعتُبر في سؤال الخصوصيّة، أي "**علاقة المرأة بالممارسة الأدبيّة، والمكانة التي احتلتها في تاريخ الكتابة الأدبيّة يجب أنْ يُنْظر إليها من زاويتين طبَعَتا سيرورة الإبداع النسويّ وتطوره، زاوية الخلق والإبداع الذي تبدو من خلاله المرأة كذاتٍ فاعلةٍ**

ومُنتِجَةٍ، والزاوية التي تُحضَر فيها المرأة كمادة للاستهلاك، يستمدُّ منها الرجل/ المبدع إنتاجه الفنيّ."[12]

جـــ ــ الكتابة تأسيس لأعراف جديدة:

يمتدّ مجال الاختلاف والتباين في المصطلح، هذه المرّة، إلى مفهوميّ **[(النسويّ) و(النسائيّ)]**؛ إذ يُؤكّد هذا الاتجاه، كذلك، على حتميّة التمييز بين المفهومين، السابقين، عند الحديث عن الأدب الذي تكتبه المرأة، بهدف تصنيف الأدب على أساس هويّته **(هو)**؛ كونه مُنتَجًا أدبيًّا **اخـــ(ت)ـــلافيًّا**، وليس على أساس هويّة مُنتِجه الجنسيّة، وعليه، يجب التمييز، إذًا، بين ماهو "**نسويّ (أي وعي فكريّ ومعرفيّ) ونسائيّ (أي جنسٍ بيولوجيّ)**"[13]

يُؤكّد هذا التحديد، إذًا، على حتميّة حضور المرأة في نصّها باعتبارها ذاتاً فاعلةً، هذا الحضور سوف يُكثّف علامات وخصائص ذلك النصّ، من جهة: "**تحويل الرؤية المعرفيّة والأنطولوجيّة للمرأة إلى علاقات نصيّة، وهو النصّ المهموم بالأنثويّ المسكوت عنه، الأنثويّ الذي يُشَكّل وجوده خلخلة للثقافة المُهَيمِنَة، وهو الأنثويّ الكامن في فجوات هذه الثقافة، وأخيراً هو الأنثويّ الذي يشغل الهامش.**"[14] فتحديد مفهوم النصّ النسويّ، يستند على علاقته مع الأنثويّ في أشكالها وتجليّاتها المُختلفة، ودلالات وجوده، ومع الرؤية المعرفيّة والوجوديّة للمرأة، على أنّ يكون هناك تَمثُّلٌ وتحويلٌ لكلٍّ هذا إلى علاقات نصيّة، تجعل النصّ يُكمِّل نفسه، بامتلاكه لعلاماته ورؤيته وأشكال مقارباته النصيّة/ الجماليّة والفكريّة والتعبيريّة، ويُكَمِّلُ رؤيا المرأة إلى ذاتها ووجودها، وإلى العالم المُحيط بها وعلاقتها معه.

إنّ التأكيد على تمثل الوعي الفكريّ والمعرفي النسويّ في الكتابة، التي "**تتشكَّل في الثغرات التي لا تُسلَّط عليها الأضواء من قبل البنية الفكريّة**

الأبويّة"[15] لا تقتصر على النسويّ وحده، بل هو مشترك عام تتقاسمه معها الكتابة الذكوريّة، وهو ما يفضي إلى مشترك أوليّ، وهو الكتابة في حدِّ ذاتها؛ إذ توقّع في الوعي الفكريّ العام والمعرفيّ، الذكوريّ أو الأنثويّ، بحضورها، بسلطتها الذكوريّة، التي تستمدها، بدورها، من حضور أسبق، توقّع، كذلك، في الوعي العام والمعرفيّ، بسلطتها الذكوريّة، وهي اللغة، الأمر الذي يجعل هذا الطرح مهتزًّا نوعًا ما خاصة إذا استحضرنا التساؤل الآتي:

ــ هل كلّ أدبٍ تكتبه المرأة يُعَدُّ أدبًا نسائيًّا؟

3 ــ الــ بين ــ بين:

إنّ شرط توفّر وعي المرأة/ الكاتبة بذاتها وبوجودها، هو، الشرط نفسه، الذي سوف يعيق تحديد مفهوم الكتابة النسائيّة، والسبب؛ أنّ: "**هناك نساء كثيرات كتبن بقلم الرجل ولغته وبعقليّته، وكن ضيفات أنيقات على صالون اللغة. إنهن نساء استرجلن، وبذلك كان دورهن دوراً عكسياً، إذ عَزَّز قيم الفحولة في اللغة[...]من هنا تصبح كتابة المرأة– اليوم– ليست مجرد عمل فرديّ من حيث التأليف، أو من حيث النوع، انها بالضرورة صوت جماعيّ فالمؤلفة هنا، وكذلك اللغة هما وجودان ثقافيان فيهما تظهر المرأة، بوصفها جنساً بشرياً، ويظهر النص بوصفه جنساً لغوياً.**"[16]

ينبغي، إذًا، أنْ تصدُر، هذه الخصوصية، عن وعي مُحدَّد لدى المرأة/ الكاتبة، إلى جانب إدراكها بأنّها "**تنتمي إلى فئة اجتماعية عاشت ظروفها التاريخيّة، وقد جعل ذلك المرأة تتمركز حول أناها، والبحث عن الحريّة**"[17] وتُطالب بموقعها داخل اللغة، وبدور اللغة في تشكيل رؤيا المرأة للعالم، لكنّ الطابع الذكوريّ للغة، وحده، من يحول بين المرأة، في جعل هذه اللغة وسيلة لصياغة خطاب تحرريّ للمرأة؛ لأنها: "**تُحَدِّد مُسبقاً موقع المرأة، ووظائفها داخل**

المجتمع، أي إنه قبل وضع القوانين التي تسعف الرجل في تدجين وتسييج حضور وإيقاع المرأة ككائن، فإنّ اللغة تقدم له بشكل أوليّ ما يرنو إليه."[18]

ــ فهل تستطيع المرأة المحكومة، والمسكونة، بقاعدة التذكير في اللغة، هل تستطيع كسر هذه القاعدة، ومن ثمّ، العمل على تأنيثها، لكي تجعل وجودها داخل اللغة وجوداً حقيقياً وأصيلاً؟

الحقيقة أنّ التراتبيّة الهرميّة بين: الرجل/ المرأة، هي التي رجّحت كفّة الحضور، والسلطة، والهيمنة، لصالح الرجل على حساب المرأة، طيلة امتداد المركزيّة الذكوريّة، ومنه فقد كُرِّست المرأة موضوعًا في النصّ، شعرًا ونثرًا، أو رمزًا لقيمة، أو بُعد، لكينونة وجوديّة، أو ميتافيزيقيّة، الأمر الذي جعل حتميّة التخلص من هذه المركزيّة، على مستوى الذات المبدعة/ المرأة، أو التخلي عن الهيمنة، والحضور، من قبل المركزيّة الذكوريّة، لصالح مركزيّة جديدة، هي المركزيّة الأنثويّة، أمر صعب جدًّا؛ فقد سجّل شعر، الصعاليك، والخوارج، والشيعة، مثلاً، فشله التامّ على خطّ الشعرية الزمنيّ؛ لأنه لم يمتلك الوسيلة الأدبيّة لقلب هرم التراتبيّة، فيخرج من دائرة الهامشيّة، إلى المركزيّة، كذلك الأدبيّة النسويّة، تعدّ قريبة من أدبيّة الصعاليك، والخوارج والشيعة، من حيث صفة الهامشيّة، التي نقرؤها في غياب وعي مفهوميّ ومعرفيّ اتجاه المصطلح، الذي لم يتّفق على ضبطه لحدّ الآن، والذي يُبَرِّر نفسه، بدوره، وراء عدم امتلاك هذه الأدبيّة نفسها لماهيّة تُوقّع حضورها، عبر جنوستها، وليست جنسيّتها؛ لأنّها في الحقيقة، لم تستطع الخروج من هامشيّتها التاريخيّة، التي فرضتها على نفسها، والتي تتصوَّر أنّ: "**الرجل هو المجتمع، والمرأة ليست سوى فئة فيه.**"[19]

وفي اعتقادي، ينبغي استغلال مبدأ النشوء للظاهرة الأدبيّة في حدّ ذاتها، حتّى تتحرّر الكتابة النسويّة من هيمنة المركزيّة الذكوريّة، وتوقيع حضورها، وبالتالي امتلاك هويّتها، خاصة وقد تحدّدت خصوصيّة الأدب النسويّ، لدينا،

بالتمركز حول الذات، ورفض السلطة الذكوريّة، والبحث عن الحريّة؛ فالشعر والنثر، مثلاً، جنسان أدبيّان من حيث الماهيّة، أي يتحدّد كلّ واحدٍ منهما بأعراف جنوسيّة ويُحدّدها بدوره، كذلك، ولكلٍّ منهما حضوره المركزيّ، في تاريخ الأدبيّة العربيّة كمبدإ عام؛ إذ حاول كلّ واحدٍ منهما توقيع هويّته الجنوسيّة، عبر توقيع سيرة الذات؛ الذات العربيّة طيلة امتدادها التاريخيّ المعروف، وهما، على ذلك، يُكَمِّل كلٌّ واحدٍ منهما الآخر ليكون هو نفسه، ليتفرّد، بمعنى أنّهما يتداخلان معًا، لدرجة انمحاء الفوارق الجنوسيّة بينهما، وهو، أي الانمحاء، ما يُحَدِّد ماهيّة كلّ واحدٍ منهما؛ فالتجريب، والانفتاح، والحوار مع الآخر، منح للشعر والنثر أوليّة البقاء والاستمرار في الزمن، وشَكَّلا مركزيّة حضور في الذات، كونها هويّة تُوقِّع نفسها بنفسها، وليس من قبل جنسيّة مُنتِجِها. فإذا أمكن للأدبية النسويّة استغلال هذه الظاهرة، لأمكنها، إذًا، أنْ تهدم الهرميّة، وتُقيم أخرى، تقوم على أساس التساوي، أو التفوّق.

الهوامش

1) ــ مفيد نجم: **الكتابة النسويّة، إشكاليّة المُصطلح، التأسيس المفهوميّ لنظريّة الأدب النسويّ**، مجلة نزوى الإلكترونيّة، عدد 42، بتاريخ: 22/ 07/ 2009م.

ــ يُنظر الموقع الإلكترونيّ: **http:// www.nizwa.com**

2) ــ ن.م.س، ص35.

3) ــ نازك الأعرجي: **صوت الأنثى**، دار الأهالي، دمشق ــ سوريا، (د.ط)، 1997، ص35.

4) ــ مفيد نجم: **ن.م.س**، ص.35

5) ــ زهرة الجلاصي: **النصّ المؤنث**، دار سارس، تونس، (د.ط)، 2002م، ص12.

6) ــ نازك الأعرجي: **ن.م.س**، 26.

7) ــ ن.م.س، ص31.

8) ــ فرجينيا وولف: **الثقافة العالمية**، العدد7، السنة الثانية، المجلد الثاني، نوفمبر، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الكويت، 1982 م، ص5.

9) ــ زهرة الجلاصي: **ن.م.س**، 26.

10) ــ ن.م.س، ص11.

11) ــ ن.م.س، ص11.

12) ــ شيرين أبوالنجا: **نسائي أم نسوي**، منشورات مكتبة الأسرة، القاهرة ــ مصر، (د.ط) 2002م، ص7.

13) ــ ن.م.س، ص8.

14) ــ ن.م.س، ص8، 9.

15) ــ يمنى العيد: **مساهمة المرأة في الانتاج الأدبي**، مجلة الطريق، العدد4، نيسان (أفريل)، 1997م، ص10.

16) ــ عبدالله محمد الغذامي: **المرأة واللغة**، المركز الثقافي العربي، بيروت ــ دمشق، الدار البيضاء ــ المغرب، (د.ط)، 1996م، ص182.

17) ــ رشيدة بنمسعود: **المرأة والكتابة**، دار أفريقيا الشرق، المرغب، (د.ط)، 1994م، ص26.

18) ــ محمد أفاية، **الهوية والاختلاف: في المرأة والكتابة والهامش**، دار أفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، (د.ت)، ص26.

19) ــ نازك الأعرجي: **ن.م.س**، 10.